

هل من جديد في الأزهر؟

للأستاذ الأب قسوانى

إن المؤرخ الذى يحاول أن يتتبع مراحل التطور الفكرى فى مصر فى أيامنا هذه يضطر — بلا جدال — إلى الإقرار بأن حياتنا العقلية تتمخض تمخضاً عنيفاً ، وأن روح التقدم الحقيقى الذى يأبى أن يضرب عرض الحائط بما فى ترانثا الثقافى من قيم خالصة — أخذ يتسرب رويداً رويداً إلى مختلف أوساطنا العلمية ، ولطالما كانت تخامرنى هذه الفكرة أثناء إقامتى فى الخارج ، ولطالما تحدثت عنها — فى باريس ، وفى فاس ، وفى تونس — مع الذين يهتمون بمستقبل الثقافة العليا فى البلاد العربية ؛ فكنا نتساءل — مع شيء من النهف — عن مدى انتشار هذه الثقافة ، وقوة تغلغلها فى الأذهان : هل تظل شيئاً سطحياً شكلياً ، أم تخوض فى صميم التسليم فتكيف العقلية ؟ ولئن كان هذا التطور يبدو بكل وضوح فيما يخص الجامعة المصرية ، لما هى عليه — منذ نشأتها — من انسجام مع الروح الحديث ؟ فالأمر كان لا يخلو من الغموض فيما يتعلق بالأزهر ، وهو المعهد العتيق الذى ركزت فيه منذ قرون برامج كادت — بموجب موضوعها — تنزّه عما يتطور ويفنى . .

ولذا كنت مشغولاً كل الشغف عند ما رجعت إلى الديار المصرية — وأنا منكب على دراسة فلسفة القرون الوسطى مسيحية كانت أو إسلامية — أن اتصل بمن يوقنى على تطور التعليم فى المعاهد الدينية فى هذه المادة ؛ وخصوصاً فى الأزهر الحالى وموقفه من الأبحاث الفارقة التى تسى لى أن أتبين خطورتها أثناء دراستى فى المعاهد الدينية فى أوروبا ، ولذا لبّيتُ — بكل رحاب — دعوة أحد أصدقائى الأزهريين إلى حضور المناقشة العلمية لنيل شهادة السالمة من درجة أستاذ فى التوحيد والفلسفة التى كانت إقامتها مزمعة يوم الأحد ٢٦ مايو سنة ١٩٤٦ فى مدرج كلية أصول الدين فى القاهرة ، ولقد شكرت صديقى أيماء شكر لهذه الفرصة التى هياها لى ، فسمح لى أن أجد بطريقة عملية إيجابية جواباً لما كنت أوجهه لنفسى من سؤال ، وهذا ليس فقط من جهة الموضوع الذى نوقش فيه « تخرّيج كتاب الملل والنحل للشهرستانى » ؛ بل أيضاً من جهة الجو الروحى الذى ساد هذه المناقشة ، ومن جهة انسجام العناصر المختلفة التى توفرت

فيه : فهناك سعادة الدكتور منصور فهمى باشا — مدير جامعة فاروق الأول سابقاً ، وكام سر مجمع فؤاد الأول للغة العربية — رأس اللجنة ، وهو ممن طالما ناشدوا روح التعاون الثقافى والتآزر العلمى ، وهناك الدكتور محمود الخضيرى أستاذ الفلسفة الإسلامية بجامعة فؤاد الأول سابقاً ، ووكيل البحوث والثقافة الإسلامية للأستاذ الأكبر شيخ الأزهر ، وهو من أبناء الجامعة المصرية الذين تخلصوا فى فرنسا وطاقوا فى ألمانيا وأسبانيا ، وهناك الدكتور محمد غلاب خريج الأزهر وفرنسا ، وهناك الدكتور محمود حسب الله خريج الأزهر وإنجلترا ، وهناك الدكتور محمد البهى خريج الأزهر وألمانيا — وثلاثهم من أساتذة الفلسفة بالجامعة الأزهرية — أليس تكوين هذه اللجنة هو وحده رمزاً لما ينشده الأزهر ، ورمزاً لرغبته الأكيدة فى الأخذ من المناهج الحديثة بما يلائم رسالته العلمية ؟ .. وبما زاد هذا الرمز بلاغة تنوع النظارة الذين تسارعوا إلى حضور المناقشة

نعم ، إنه كان من الطيبى أن ترى هناك أساتذة من الأزهر وطلبة أزهرين ، قاليببت بينهم ، والمناقش من إخوانهم ، ولكن أليس من الغريب السار أن نجد بينهم أربعة قسوسة رهبان من يسوعيين ودومنيكيين ، أحدهم مستشرق أمريكي والآخرون شوقيون ، بل مصريون ممن يعرفون الأستاذ المناقش جد المعرفة ؟ وأليس أعجب من هذا أن نشاهد بين الحاضرين آنسات فى المكان الخاص الذى خصص لهن فى أعلى المدرج ؟

وما وافت الساعة الخامسة حتى افتتح سعادة الرئيس الجلسة بكلمة استغرقت نصف ساعة ، وهو يتكلم بحماسة رزينة هادئة واعتقاد عميق يعطى أحياناً لباراته نبرة قوية تجعلها تنفذ نفوذاً إلى الأذهان والقلوب : بدأ بالبناء على فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرزاق ، الذى عاقه عن الحضور انعقاد المجلس الأعلى للأزهر ، وعلى فضيلة الأستاذ الكبير وكيل الأزهر ، وعلى فضيلة شيخ السككية ، وكرر الشكر لكل من ساهم فى العمل على اتساع دائرة الاتصال العلمى بين الأزهر والعلماء المدينين والجامعين ، خصوصاً فضيلة الأستاذ الأكبر الذى تخصص فى الفلسفة بجانب تعمقه فى النواحي الدينية المختلفة ، والذى أفادت منه الجامعة المصرية حيناً من الدهر ، ثم أبدى سعادة الرئيس أسلمه فى أن الأزهر سينال اهتمام فضيلة الأستاذ الأكبر من الناحية الفلسفية ، وأن نوايع الأزهريين سيكوّنون — مع أستاذهم الأكبر — جواً صالحاً للدراسات

وضمه الله في فطرة الإنسان السلية ، تلك الفطرة التي تتمثل في الأديان جميعا : خيرا ، وعبدة ، وإعلاء ، وعدلا ... حتى يكون هناك التفاهم الفكري والتفاهم الروحي ، وحتى تسير الإنسانية إلى خير ما خلقت له . » (١)

ولعمري ! لم أكن لأنتظر في هذه القاعة هذا الوضوح في رسم الهدف ، وهذه النزعة في السعي وراء تحقيقها ، فهذه الروح الجديدة التي كنت أتساءل عما إذا كانت وصلت إلى الأزهر ، وهاهو الزرع المبارك الذي بدأ ينبت بإذن ربه ، فالناقشة التي تلت هذه الكلمة جاءت بمثابة تطبيق للبادئ التي ونحها سعادة الرئيس ، فالأستاذ صاحب الرسالة - وهو واقف رابط الجأش أمام المجلدات الأربعة لرسالته - أخذ يشرح موضوع رسالته ، ثم يجيب بهدوء عن الأسئلة التي وجهها إليه بالتوالي أعضاء اللجنة ؛ وهي أسئلة دقيقة تنفذ إلى لب الموضوع وتحاول تارة تلمس منهج البحث ، وتستفسر طورا بعض نتائج الرسالة ؛ حوار بديع على وزن ، أعاد إلى ذاكرتي تلك الرسائل التي تناقش في أوربا ؛ ولكن هنا مع شيء من « الظرف » المصري الذي لم يقلل شيئا من جسد المناقشة ؛ بل يكسبها روحا شرقية خاصة لم أجدها في الخارج .

وفي تمام الساعة الثامنة والاصف - أعني بعد مناقشة استغرقت ساعتين - رفعت الجلسة ، وخرجت اللجنة للدخول ، ولما رجعت إلى قاعة المناقشة نطق سعادة الرئيس بالحكم قائلا : « بعد أن تناقش أعضاء اللجنة فيما استبانوه من حسن الاستعداد الفلسي ، واتساع الآفاق ، والمجهود القيم في التأليف ، والمثابرة على العلم ، ومراعاة الخلق العلمي ، وتلقى النقد بصدر رحيب يدل على عبة الحق ... قررت اللجنة فوز فضيلة الأستاذ الشيخ محمد بن فتح الله بدران بشهادة البالية مع لقب أستاذ من درجة ممتاز في التوحيد والفلسفة » . فدوت القاعة بالتصفيق والاحتفاء ...

ورجعت إلى « البير » والنهن نملوه بتفاصيل هذه الحفلة الثقافية العليا ؛ فحدثني قضي أن أسطر هذه الأسطر ؛ لعلها تسام - لا من جهة الرأي الشخصي ؛ بل من جهة الواقع المحسوس - أقول : لعلها تسام في إيضاح مشكلة الأزهر التي هوجلت مرارا على صفحات مجلة الرسالة الفراء .

أولب فنواني

(١) مرخصا هذه الأقوال على سادته فأقرها .

الفلسفية بحيث يستطيع الأزهر أن يؤثر - حتى من الجهة الفلسفية نفسها - على الجامعات الأخرى ، مادام الأزهر يطبق الأنماط العلمية في المناقشة والمثابرة في طلب الحق الذي هو ضالة المؤمنين ... ثم وجه سعادة الرئيس كلمة لطلاب البحث العلمي والحقيقة العلمية ، ناصحا إليهم بالجهد والاجتهاد واتساع الآفاق والصبر والأمانة العلمية ، حتى يصلوا إلى ذلك الموقف الذي وقف فيه زميلهم - صاحب الرسالة - ذلك الموقف الذي يدل على حب البحث العلمي والتفاني فيه ، والذي يفتح الأبواب أمام منهوى العلم الذين لا يشبهون . وتبني سعادته للأزهريين مستقبلا باهرا ما داموا يوسعون ميادين بحوثهم وآفاق ثقافتهم ، بحيث يلتقي بهم ويتبادل الفائدة معهم من لم يسددهم الحظ ، ومن لم تتح لهم الظروف أن يتتقوا بثقافة الأزهر .

ثم قرر سعادته : « أننا في عصر تعاون وتقام وتقارب بين الفلسفات ، بل وبين الأديان نفسها ، وأن هذا التواصل والتعاون هما اللذان يسيران بالإنسانية إلى وحدتها المنشودة وغايتها المرجوة ، وآية ذلك ما نشاهد الليلة من جو مشبع بروح التسامح والنهوض الفكري » . وأشار سعادة الرئيس إلى أن هذه أول مرة يرى أو يسمع فيها أن في الأزهر غربيين وقساوسة ورهبانا : « وهذا يذكرنا بروح التسامح الذي كان الأزهر متسببا به ، والذي كان صدر الأزهر دائما متفتحاً له » . وأن هذه أول مرة أيضا سمع فيها سعادته أو رأى آنسات يحضرن مجالس العلم في الأزهر وتخصص لمن أمان فيه . « وهذا يدل على درجة عالية في النضوج الفكري والمستوى العلمي المفروض طلبه على كل مسلم ومسلمة ، ويبين في وضوح أن الأزهر أخذ يقدر ما هو مطلوب منه بإزاء الملطات بجانب ما هو مطلوب منه بإزاء المسلمين ، وأن هذا كله جو مبشر يدعو إلى التفاؤل بمستقبل الأزهر ، الذي كان قد انبزل مدة طويلة حتى عن العلماء المدنيين » .

ثم قال سعادته : « أما وقد لبي الأزهر حاجة العصر ، وسائر روح الزمن ، فسام في الوحدة المالية ، واتصل بالعلوم التي تكونت في ميادين أخرى بروح التسامح الديني ، والتآزر الفلسي ، والتآخي العلمي ، فإنه سيحصل - قريبا - قديمه بحديثه ، ويصبح منبع ثروة كبيرة في التوجيهات الفكرية والعلمية والدينية للعالم كله ، وهذا مأمول ، وهو في رعاية شيخ درس الفلسفة الإسلامية والفلسفة الغربية وأفاد مما فيها من خير مذكور . ونصيحتي العامة لكل شخص : أن يعمل للخير الذي